إطلالـه على ملامح من فكر الإمام الخميني

إطلالـه على ملامح من فكر الإمام الخميني

2007-08-22

احمد سليمان

إذا كان الإمام الخميني الراحل (قدس) قد مثل الرمز في الثورة الإسلامية التي تكللت بالانتصار الكبير في شباط 1979 انطلاقا من الموقع القيادي الفاعل، اعتبارا من الخطوة الأولى المتمثلة بتوجيه الثورة بمسارها السليم، وحتى قطف ثمار الانتصار بعد ما يقارب الستة عشر عاما ـ إذ كان ذلك ـ فإن مرحلة ما بعد انتصار الثورة كانت تطبيقا عمليا، لم يشوبه لبس أو غموض لمفاهيم الثورة مفرداتها وأفكارها ليس في السياسة فحسب، بل إننا شهدنا هذا التلاقي و التجانس في الاقتصاد والثقافة و العلاقات الاجتماعية.

لكل ثورة رموزها، ولكل مرحلة تاريخية سماتها وخصائصها التي قد تتشابه أو تتماثل مع سمات وخصائص مرحلة تاريخية أخرى بحكم المصادفات مرة، واستنادا إلى التقليد و المحاكاة مره أخرى ورموز الثورة ـ أيه ثورة ـ غالبا ما يقع على عاتقهم تحديد الأطر العامة وتوجيه المسارات الهامة للمراحل التاريخية التي تعد منعطفات حيوية يتطلب التعامل معها قدرا عاليا من اليقظة والحذر والحكمة والدراية.

وإذا كان الإمام الخميني الراحل قد مثل الرمز في الثورة الإسلامية التي تكللت بالانتصار الكبير في شباط 1979 انطلاقا من الموقع القيادي الفاعل، اعتبارا من الخطوة الأولى المتمثلة بتوجيه الثورة بمسارها السليم، وحتى قطف ثمار الانتصار فان مرحله ما بعد انتصار الثورة كانت تطبيقا عمليا، لم يشوبه لبس أو غموض لمفاهيم الثورة ومفرداتها وأفكارها ليس في السياسة فحسب، بل إننا شهدنا هذا التلاقي والتجانس في الاقتصاد والثقافة والعلاقات الاجتماعية وحتى في تحديد موقع الفرد داخل المجتمع وقيمه لا وفقا لما ينتجه، وإنما وفقا لقيمته الإنسانية العليا بل والأكثر من ذلك فان ظلال المتغيرات الجديدة راحت تمتد بعيدا في أصقاع العالم الإسلامي لتمنح الثورة بعدا عالميا ولتجعل من الإمام الخميني مثالا عظيما للثائر والقائد السياسي في آن واحد.

الرحيل لا يعني النهاية!

وبعد عشرة أعوام من عمر الثورة رحل الإمام ليترك ثورة ودولة ومجتمع جديد وعالم أنظاره شاخصة إلى ما جرى وما يزال يجري بشكل يتغير يوما بعد آخر، ولكن هل رحيله كان يعني النهاية.؟

في حقيقة الأمر ربما بدا للبعض انه كذلك. سيما وأن تحولات كبرى طرأت على أجزاء بالغة الأهمية من خريطة العالم بدأت معالمها تظهر وتتجلي في الأفق بعد الرحيل بفترة قصيرة ـ فضلا عن النتائج التي آلت إليها أوضاع سياسيه معينه كانت تعيشها المنطقة وتواجهها لسنين عده.

بيد أن النظرة الموضوعية والتعامل مع الوقائع بإطارها العام الشامل، وبعمق علمي تكشف لنا أن التأثير الفعلي للإمام الخميني في مختلف مناحي الحياة وجوانبها، وليس في إيران فحسب بقي كما كان قبل رحيله إن لم يكن قد اتخذ بعدا شموليا واكبر.

فالقضايا الرئيسية محور اهتمامه والتي تمثلت أساسا بالعمل على تحقيق الاستقلال والوحدة الإسلامية، وإقامة المجتمع الإسلامي الصالح، ومقارعة القوى الكبرى المعادية للعالم الإسلامي و الساعية إلى

مصادرة قيمه وثرواته، واستعباد شعوبه، هذه القضايا ما تزال تحتل أحيز أوسع في برامج العمل السياسي والاجتماعي والفكري للقيادة الإيرانية، ليس لان المرحلة الحالية لم تختلف في معالمها و ملامحها عن المرحلة السابقة، بل لأنها ـ أي القضايا ـ تعدد ثوابت أساسية في الفكر والمنهج الذي أرساه الإمام للثورة الإسلامية.

موقع الثقافة في فكر الإمام الخميني

لقد شكل الجانب الثقافي احد ابرز اهتمامات الإمام الخميني الراحل إذ اعتبره مفصلا مهما جدا من مفاصل قوة الدولة الإسلامية ومنعتها، وهي تواجه مخاطر ومؤامرات شتى تهدد وجودها و استمرارها ...

فالذي حدث إبان الثورة الإسلامية جسّد قدرة الإسلام على مقاومة كل المخططات الرامية إلى إبعاد الأمة عن ثقافتها الأصيلة، حيث أن الجماهير المسلمة وقفت بوجه الإرهاب ورفضت رفضا قاطعا مظاهر الفساد والتحلل الأخلاقي.

و كان الإمام الراحل يرى انه «بمقدور الجامعات ـ كأحد ابرز المعالم الثقافية في المجتمع ـ أن تغمر العالم بالنور إن قرنت التعليم بالخلق الإنساني و بمسايرة الفطرة الإنسانية. وإذا فصلنا العلم والتخصص عن الأخلاق والتهذيب والوعي والالتزام فان ذلك يؤدي إلى بروز مفاهيم و أفكار غريبة علينا تجتاحنا من الغرب والشرق وتنقض على قيمنا وعقائدنا وأفكارنا»1.

وفي نفس السياق فان الإمام الخميني «يدعو إلى توقف الجامعة التقليدية عن العمل، وتجميع الطاقات نحو تأسيس جامعة إسلاميه جديدة»2، وهي ذات الدعوة التي أطلقها قبل أكثر من مائه عام عبد الرحمن الكواكبي ومفكرون إسلاميون آخرون إلا أن الدعوة الجديدة أخذت بعين الاعتبار طبيعة المرحلة التاريخية المعاصرة وجوهر الصراعات القائمة والقوى المحركة لتلك الصراعات والموجهة لها.

وارتباطا بهذا الجانب فان صياغات جديدة لواقع العلاقات الاجتماعية فرضت نفسها على كافة البنى والهياكل القائمة فضلا عن المؤسسات التي لها دور في عملية التثقيف ونشر الوعي كمحطات التلفزيون والإذاعات والصحف والمجلات والمنتديات الفكرية ذات الطابع الرسمي أو غير الرسمي.

وقد تكون أبعاد الغزو والاختراق الفكري ـ الثقافي اشد خطرا على المسلمين من الغزو العسكري والحصار الاقتصادي كما يشير الإمام الخميني بقوله «مأساة المسلمين الكبرى تتمثل في هذه الثقافة الشائعة بين

المسلمين والتي تجر شبابنا إلى هذا الجانب وذلك الجانب …

ويتوجب على علماء الإسلام وعلى الكتاب والخطباء أن ينبهوا الأمة الإسلامية إلى ما لديها من ثقافة غنية ـ ثقافتنا ـ والكلام للإمام ـ استطاعت أن تتجاوز حدود عالمنا الإسلامي، ثقافة المسلمين كانت أغنى الثقافات ولا زالت كذلك لكن المسلمين لم يستفيدوا منها مع الأسف ... نحن لا نخشى المحاصرة الاقتصادية، ولا نخشى الغزو العسكري، خوفنا من التبعية الثقافية ... خوفنا من الجامعة الاستعمارية، نخاف من جامعه تربي شبابنا بشكل تجعلهم في خدمه الغرب، نحن نخاف من جامعة تربي شبابنا بشكل تجعلهم في خدمه الشيوعية»3.

دوله الإسلام العالمية

وإذا كان اهتمام الإمام الخميني بالجانب الثقافي كبيرا فان اهتمامه بموضوع الدولة الإسلامية العالمية، والوحدة الإسلامية لم يكن هامشيا أو عابرا، ولعل ذلك بدا واضحا في طبيعة وجوهر و مضمون الخطاب السياسي للثورة الإسلامية الإيرانية، فمفردات من قبيل محاربة الظلم، وتحقيق العدالة ونصرة الشعوب الإسلامية المستضعفة، و التأكيد على القيم الروحية، بدلا من القيم المادية تشير في الحقيقة إلى شمولية المشروع، واتساع مساحة الاهتمام والتفكير، سيما وأن الشعوب الإسلامية كانت إبان انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني تواجه تحديات خطيرة، ربما كان أبرزها رجحان كفة الصراع العربي ـ الإسرائيلي في فلسطين لصالح الكيان الصهيوني والغزو السوفيتي لأفغانستان أواخر عام 1979، فضلا عن النزعة الديكتاتورية القمعية ـ الإرهابية لمعظم الأنظمة السياسية العلمانية المتسلطة على مجتمعات المسلمين، الإمام الراحل ينظر إلى تلك القضية من زاويتين.

الأولى: إقامة حكم الله والذي أساسه الإسلام، حيث يقول بهذا الشأن «إن تمادي الحكومات في غيها يعني تعطيل نظام الإسلام وأحكامه. في حين توجد نصوص كثيرة تصف كل نظام غير إسلامي بأنه شرك، والحاكم ـ أو السلطة فيه ـ طاغوتا، ونحن مسئولون عن إزالة آثار الشرك من مجتمعنا المسلم»4.

هذه النظرة ترتبط على ما يبدو بمفهوم الثورة باعتبار أنها الخطوة الأولى لعملية التغيير المجتمعي الشامل من القمة إلى القاعدة، وهي تتطلب بالدرجة الأساسية مساهمة المجموع للوصول إلى الأهداف المرسومة ...

الثانية: القضاء على الاستعمار كمفهوم سلبي، وتاريخ ممتد لفترات طويلة، مليء بالاضطهاد و الظلم

ومصادرة ثروات الشعوب المسلمة، وترسيخ واقع التجزئة والتخلف والانحطاط وضمن هذا الإطار يقول الإمام الخميني (قدس) «لقد جزء الاستعمار وطننا، وحول المسلمين إلى شعوب مجزئه، وعند ظهور الدولة العثمانية كدولة موحدة سعى المستعمرون إلى تفتيتها، لقد تحالف الروس والانجليز وحلفائهم وحاربوا العثمانيين، ثم تقاسموا الغنائم كما تعلمون، ونحن لا ننكر أن أكثر حكام الدولة العثمانية كانت تنقصهم الكفاءة والجدارة والأهلية، وبعضهم كان مليئا بالفساد، وكثير منهم كانوا يحكمون الناس حكما ملكيا مطلقا، ومع ذلك كان المستعمرون يخشون أن يتسلم بعض ذوي الإصلاح والأهلية من الناس وبمعونة الشعب قيادة الدولة العثمانية على وحدتها و قدرتها وقوتها وثرواتها فيبدد كل آمال الاستعماريين وأحلامهم»5.

ويضيف الإمام الخميني الراحل في معرض تحليله ورؤيته لموضوع الوحدة الإسلامية «إننا لا نملك الوسيلة إلى توحيد الأمة الإسلامية وتحرير أراضيها من يد المستعمرين، وإسقاط الحكومات العميلة لهم إلا أن نسعى إلى إقامة حكومتنا الإسلامية، وهذه بدورها سوف تكلل أعمالها بالنجاح يوم تتمكن من تحطيم رؤوس الخيانة وتدمر الأوثان والأصنام البشرية و الطواغيت التي تنشر الظلم والفساد في الأرض ...»6.

الحكومة الإسلامية والوحدة الإسلامية

من هذا المنطلق فان الحكومة الإسلامية تعد احد المقومات الأساسية ـ الرئيسية ـ لتحقيق الوحدة الإسلامية سواء على الصعيد النظري أو العملي، فالكيان الإسلامي الموحد في زمن الرسول الكريم (ص) وكذلك بعد وفاته حيث غدا هذا الكيان مترامي الأطراف ـ شرقا وغربا شمالا وجنوبا ـ ذلك الكيان محكوما بسلطة مركزية ـ سياسية ـ دينية توجه الأمور وتسيرها استنادا إلى آليات عمل لا تختلف كثيرا من حيث إطارها العام عن شكل الحكومات والنظم القائمة حاليا، رغم اختلاف الوظائف وطبيعة ممارستها ودرجة تعقيدها.

وبهذا الشأن يؤكد الإمام الخميني (قدس) في كتاب «الحكومة الإسلامية» «أن حكومة الإسلام هي حكومة القانون، فالفقيه هو المتصدي لأمر الحكومة لا غير، فهو ينهض بكل ما نهض به الرسول (ص) لا يزيد و لا ينقص شيئا، فيقيم الحدود كما أقامها الرسول (ص) ويحكم بما أنزل ا»7.

ويضيف الإمام الخميني الراحل في كتابه المذكور بان «حكومة الإسلام هي حكومة القانون، والحاكم هو ا وحده، وهو المشرع وحده لا سواه وحكم ا نافذ في جميع الناس وفي الدولة نفسها»8.

ماذا يعني ذلك؟ بعبارة أخرى يعني أن الحكومات أو الدول الإسلامية رغم تعددها فهي تلتقي عند قواسم مشتركه عديدة، أبرزها وأهمها هو وحدة مصدر التشريع، وتماثل القوانين، وبالتالي التناغم والانسجام بين النظرية والتطبيق عند مستوى معين من المستويات، والذي يقود بدوره إلى الاقتراب أكثر فأكثر من تحقيق الوحدة الإسلامية بين شعوب ومجتمعات قد تختلف فيما بينها في اللغة والثقافة والنظم الاجتماعية وتفصل بينها مسافات شاسعة إلا أن نقطة التقائها هو الإسلام باعتباره المنظومة الأشمل والأكمل ـ والبوتقة التي ينصهر فيها الجميع ـ و تستوعب الجميع.

الهوامش

1 ـ الاستقلال الثقافي: طريق الثورة نحو الأصالة الإسلامية، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إعداد محمد علي حسين، 1402 ه ـ ص 14.

2 ـ المصدر السابق، ص 15.

3 ـ المصدر السابق، ص 35.

4 ـ الحكومة الإسلامية: منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى، دروس فقهيه ألقاها الإمام الخميني على طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف في عام 1389 هـ.

5 ـ المصدر السابق، ص 34.

6 ـ المصدر السابق، ص 72.

7 ـ المصدر السابق، ص 42.